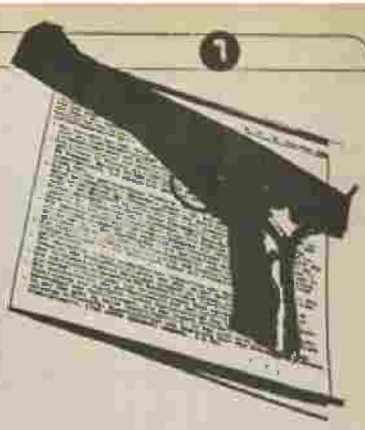

أم.. هى الشيطان

زهيرة البيلى

دق جرس التليفون فى أحد مراكز البوليس بميلانو فى عام ١٩٥٦ فى حوالى الساعة الحادية عشرة مساء.. وكان الصوت الذى يعترف بقتل أبيه!

كان صوتا محنوقا.. يبدو كأنه يتنفس بصعوبة وأنه فريسة لانفعال مخيف.. وأعطى الشاب الصغير عنوانه.. فانطلقت على الفور.. سيارة البوليس تشق ظلمات الليل، محملة ضجة هائلة بصفاراتها المخيفة.

هناك بالدور الخامس وفى شقة كبيرة.. وقف شاب - فى التاسعة عشرة من عمره - يرتدى قميصا بأكمام قصيرة ويلبه رقة.. قصيرة طويل القامة.. لكنه نحيف.. عياله غارتان.. وجهه مضطرب.. لكنه عذب وإلى جانبه وقفت امرأة.. برجوازية.. مربعة الوجه.. عريضة الأكتاف ترتدى معطفا من الفراء.. وقد استقر عقد رفيع من اللؤلؤ على الديكولتيه الواسع.

كان من الواضح أن المرأة وصلت توا.. أى منذ حوالى خمس دقائق فقط.. أما والدة الغلام زوجة الضحية فهى الكونتيسة «ديلافالو».. وعلى ما يبدو أنها كانت تسمع فى شبابها جمالا نسبيا.. اختفى تماما وراء علامات السنة الواضحة والتجاعيد التى تدل على الخطأة.. كما ظهرت من بعيد فتاة صغيرة فى الثالثة عشرة من عمرها.. استعادت تماما لتصبح فتاة يافعة.. وقفت مرتدية بيجاما.

أما الضحية.. فكانت هناك ممدة على الأرض فوق سجادة فى حجرة المكتب.. والقتيل.. رجل فى الرابعة والخمسين من عمره.. فى ليلة الشتاء التى بدت بلا روح تحرد زهر النوس.

راح المأمور يكرر السؤال المعتاد فى مثل هذه الحالة.. «من الذى قتله؟».. فلم يلو الغلام على الإجابة.. واكتفى بهز رأسه.. علامة على الإنكار وعندما سأل المأمور عن السلاح الذى استخدمه.. أشار الشاب إلى مطفأة صغيرة عليها آثار دماء.. وهنا حاولت الأم أن تخرج عن صمتها وتجيب بدلا عن ابنها.. الذى.. الذى دفع المأمور إلى تهديدها بالطرد.. فهو يريد استجواب القتيل.. وأسئلته موجهة إليه فقط.

وبالرغم من صغرة الموقف وشدة الانفعال.. بدا صوت الشاب صغيرا وبعد عن فترة مراهقة غير مستقرة.. لقد تشاجرت مع والدى.. الذى كان يعاملنى مثل.. ثم.. ثم كان يسيء لقد ضربنى بالسوط.. وكنت دافع عن نفسى.

لم تستطع الأم التحكم فى صمتها طويلا.. فهتفت لمساعدة ابنها وأضافت.. كان زوجى يعاطى الخمر.. فذهبت لزيارة الجيران.. ولم يكن يكف عن شرب الخمر كل مساء.

كان المأمور رجلا صبا.. أى ينتمى إلى جيل مختلف.. يتسع بصدر يرتدى معطفا واقيا من المطر.. لا لون له.. وبنطلونه غامق وكان يرتدى بدلة.. يخفى جزءا من إحدى عينيه.

فى هذه الليلة هطل المطر بشدة.. وظل المأمور يرقب القتيل متجاهلا الأم تماما.. وفجأة سأله.

لماذا كانت البلطة فى يدك؟ أجاب القتيل أنه كان يصلح غرفة حشية لتنظيفه.. عندما هاجمه الأب بالسوط.. الذى استقر على السجادة وظل بعد أمتار من الضحية.. ورفع الشاب البلطة بغضب.. لوى المأمور الخطوط الحمراء التى ملأت ظهره.

وهنا دق جرس التليفون فوق مكتب الكونت القتيل.. وظل المأمور يدير محمل كل المعلومات اللازمة عن الضحية والتى تمح جهازه فى تحديدها فى فترة زمنية قصيرة.

كان الكونت «ديلافالو».. الوريث الشرعى لعائلة عريقة من الريف.. التى انقبض عليه أكثر من مرة لادمانه الخمر.. كما ضبط فى حالات شغب.. فقد كان سكيرا معروفا.

أما الكونتيسة فلم تكن سوى امرأة مبة المسعة ضبطت خمس مرات متلبسة فى عمليات نهب واختيال.. كما سبق أن نشرت إعلانا فى الصحف تقول فيه: «ان برازيلية ثرية تبلغ ثروتها حوالى ٤٠٠ مليون ترغب فى الزواج من شاب إيطالى.. وكان يكفى أن ترسل إليها الـ ٣٠٠ فرنك مصاريف البريد.. وكانت هى بالطبع هذه البرازيلية الثرية.. وتسببت هذه الخرافة فى الاساءة لمركز زوجها الذى كان يعمل - فى ذلك الوقت - مديرا لوزارة الإسكان.

ألقت الكونتيسة بعطفها على مقعد قريب.. فظهر فستانها الضيق من الحرير البوردى وبعد أن أرغمى الشاب قبضته من جديد.. ألقى الأثنان جامدين فى مكانهما أمام المأمور.. الذى بدأ يشعر باحساس غريب خاصة فقد اعتاد المأمور التعامل مع هذه الأنواع من البشر.. وعرف كيف يستقى الحقائق من وسط الظلمات.. فعندما ينطلق فى تحت مأساة عائلة فانه تتولد لديه أحاسيس تظل فى ذاكرته وداعا تزيدها التفاصيل المتعددة التى يأتى بها التحقيق فيما بعد.. لقد أحس المأمور - ولأول وهلة أنه أمام مجرمين.

وأسرع رجل البوليس - المأمور - قرعة وصول الطبيب الشرعى مع وصول جيش من المحققين ليفرغ بالقبو داخل حجرته.. وأخذ يفحص كل ماحوله.. فوجد مفارا يفحص الأدوات على المائدة وإلى جوارها وحد هيكل عربة حشية صغيرة.

كان واضحا أن القتيل يحب أحته.. وليس من السهل على من فى مثل سنه أن يضع وقتا طويلا فى صنع عربة حشية لأخته.. فكيف يمكن لشاب عمل مثل ذلك المشاهر أن يقتل أباه؟.. وعندما طلب المأمور من الشاب أن يحدثه عن أبيه.. قال.. إنه ليس والدى.. ولكن أى الخليق هو عمى أما أمى فهى الأبنة الحقيقية.

نعم.. هكذا قالت له أمه.

وأمام هذه المفاجأة الجديدة جذب المأمور طرف الديزيه.. ليعطى جزءا من عينه.. وجلس على حافة السرير وأخذ الشاب إلى جانبه محاولا القيام بدور الأب العطوف.. الذى كان يفتقده الآن داخا!

كان الكونت «ديلافالو» يحب أب رحمى للطفل.. وكان يعامله بالمال وحذاء غريب وكان يصرخ داخا فى وجهه قائلا.. إن امك ساقطة.. عرفت عليا فى أحد البيوت المشبوهة.. وأحيانا أخرى كان ينهال على الشاب بالضرب وحشية.. فيجلده على الخلوس أو الركوع على ركبتيه لاذلاله.. ويوقن يديه ثم ينهال عليه بالضرب حتى يسقط فى حالة إغماء.

كان الأب سكيرا غريبا.. فعندما يشرب الخمر يتحول إلى وحش كاسر.. لقد نشأ هذا الشاب الحالم الرقيق وسط أسرة عطفة.. فهذا الأب المتكئ.. الموظف الكبير.. وحل القانون.. الكاثوليكى النبيل.. وصل به الانحطاط إلى اتهام الغلام.. بالتشرد.

وذلت التحريات أن صديقة الغلام - وهى جارة شابة - كانت تعانى من شدة غيرة الأم على ابنها الذى حاول الانتحار مرارا فى حالات يأسه فلم ينجح الأب.. وبإصرار شديد كان يسجن الغلام لعدة ساعات طويلة داخل دولاب الحائط.. وكان يتركه مرارا فى المكتن عاريا تحت المطر انه تعذيب بطىء ومنتظم.. تعذيب نفسى وبدنى.. جعل الجريمة مطلقة.

وهنا المأمور بالإدارة عدة نقاط أراد بها مواجهة الأم والابن مبتدئا بإعادة تمثيل الجريمة.. وبعد أن غادر الطبيب الشرعى.. وجيش المحققون مسرح الجريمة.. عاد إلى المكتب هدوءه حيث وضعت مكان جثة الكونت علامات بالطباشير وكذلك على السجادة.

وطلب المأمور من الشاب أن يعيد أمامه بالتفصيل تمثيل الجريمة كلها كما حدثت بالضبط حتى تم استدعاء البوليس كما أمره أن يأخذ البلطة من على المكتب وأن يخرج ويغلق الباب خلفه.. أما الأم فطلب منها المأمور أن تبقى فى مكانها بعد أن اغلق الشاب باب المكتب انتظر المأمور لحظات أو عدة دقائق.. ليفتح الباب من جديد ويظهر الشاب الباكى كأنه أبله يمسك البلطة بيده.. كان جسده كله يرتعد.. كما لو كان علاما باسا قلقا.

هل الشاب يروح ويغدو داخل الحجرة لعدة لحظات دقائق بلا معنى كأنه تمثل بلا موهبة يؤدى دورا صامتا.. فجأة نظراته مترددة.. وعندما انتهى عاد إلى التليفون فعلق به وكأنه أداة للبلاد.. وهنا خلل المأمور عن أسلوبه

الأوى ولجوء إلى إنسان آخر حنيف.

احس – ولاحظة – أن الفتى يسخر منه. فمن المستحيل أن تكون الأحداث قد تابعت بهذه الطريقة واستنتج أولا أن الفتى لم يضرب اباه كما أوضح. وثانيا ما استطاع احاسيسه في رأسه. كما أنه من الواضح أيضا أن الغلام لم يحقد ظهره على الاطلاق.

والسؤال: إذن فمن اين أتت ضربات السوط ؟!

تبادلت الأم وابنها النظرات. وبدا الشاب كما لو كان يريد الاعتذار لها. أما هي فكانت في قمة حالاتها العصبية.

وتعمد أوبر المأمور أن يضرب ضربة، حتى ولو كانت في الأمر مخاطرة. فهدد باستخدام العنف. فالموقف لم يعد يحتمل.. إنها جريمة، أي جناية. فقد مضى وانتهى وقت الأكاذيب. وجاءت ضربته في شكل سؤال نهائي، وجهه للفتى:

«هل كانت لك علاقة جنسية بأمك ؟!».

جاء السؤال مثل الصاعقة التي حطت على حجرة المكتب الخربن بالدور الخامس. فبدت الأم في نهايا العارية شاحبة الوجه وقد تطاير الشرر من عينيها. ومع خاتمة الليل كان كل شيء صامتا، إلا من صوت النزام، أول نزام يمر في الساعات الأولى من الفجر.

لقد اطلق السؤال الصاعق، الذي فجره المأمور العملاق بركانا حين صرخت الأم قائلة: «إنه شيء مخجل!» وحاولت منع ابنها من الإجابة.

اما الابن.. فقد شحب وجهه وتقوس ظهره وطارت عيناه. ولم يستمر طويلا في صمته فقال بصوت خافت.

نعم.. حدث هذا مرة واحدة. ولم أحاول التكرار ولكني رفضت لقد احسست بالخجل من نفسي، وكنت في السادسة عشرة من عمري.

أمام هذا الأعتراف الخجل صرخت الأم كالبة متهمة اياه بمحاولة استدراج أخته الصغرى عندما كانت في العاشرة.

الاتهام شنيع لاقى في نفسه الوصف والحدود فراح الابن يدافع عن نفسه وكيف إنه يحب ويخاف على أخته الصغرى. وأجهش بالبكاء وكان بكاء مريرا نعم كان الموقف يبعث على البكاء.. أطفال يعيشون في وسط اجتماعي متعفن بين أم ساقطة لاهم لها وأب مخمور دائما لقد عرف المأمور من وسط هذا الواقع الأليم الاجابة على أسئلته ولكنه احتفظ بهذه الإجابات لنفسه.

وأمام القضاء، اعترف الشاب.. ولكنه اكتشف ضرورة تخفيف كثيرة منها.

نشأته في وسط اجتماعي فاسد وحداثة سنه.. الشيء الذي خفف عنه الحكم إلى ثماني سنوات فقط أما الكويتية فخرجت مثل النجمة من المحبس حرة كما كانت.. بل ربما أحسن لما كانت تقود ابنها الى دولت جرما من الموات – غير حياة شائكة أما المأمور صاحب البريد فلم يلق حتى الدعوة لحضور هذه القضية التي لم يكن يتوقع أن سوف يستدعيها من جديد عندما تقدم زميل للشاب مدة عقوبته وخرج ليلتقي بالمأمور..

تأسف زميل الزوجة كثيرا على حالة الفتى البائس. وشرح للمأمور أنه يريد مساعدته خاصة بعد أن اعترف له بكل شيء: قبل ارتكابه الجريمة كان يعمل في مزرعة عندما استدعته أمه إلى «ميلانو» لحت حجة أنها وجدت له عملا أفضل. وكانت بالطبع خدعة. ربما كان الغلام واقعا تحت سيطرة تلك الأم كان من السهل عليها دفعه لقتل أبيه. بعد أن قامت بترتيب كل شيء فقد خرجت بحجة زيارة خيولها في الشقة المقابلة. وعندما انتهى الشاب من جريمته أضاء حجرة الطعام. وكانت تلك هي الإشارة المتفق عليها فجاءت مثل الوردة المفتحة وقامت بضرب أبيها على ظهره بالسوط حتى يبدو كأنه كان في حالة دفاع شرعي عن النفس. وأثناء المحاكمة كانت تمد إليه خطاباتها المستمرة تناديه باستمرار: «ابني حبيبي.. معبودي الصغير». وتكرر وتعيد عليه باستمرار ما يجب أن يقوله وتلقنه له أن المحامين مقتنعون وأنه سوف يتم الإفراج عنه قريبا بالرغم من كل شيء وعندما صدر الحكم ضده بالسجن لم يتلق منها كلمة واحدة. ولاحتى برقائة في أيام الأعياد. أما الأم الحسناء العجوز فتنحدر في «لاس فيجاس». بقايا امرأة تقود ابنها إلى الأنهيار. وتوصل الرجل زميل الزوجة لدى المأمور ليطلق هذا الشاب ويجالب الهرم الحقيقي

وأمام هذه التصريحات الجديدة لم تكن دهشة المأمور كبيرة. فماذا يمكنه أن يفعل خاصة أن الذي أتى بهذه المعلومات الجديدة صاحب سوابق ؟ ثم أن الشاب معترف بجريمته قبل وبعد كل شيء. ومن المستحيل أن تنظر القضية من جديد. اما الأخت المسكينة.. فما قريب سوف تبلغ السادسة عشرة. وكيف يسمح القانون بقائها مع تلك الأم الساقطة. أيد أنها تلك التي تتظرها ؟! لقد أقسم الشاب على الثأر لنفسه ولأخته.

استطاع المأمور بعد عدة أيام مقابلة الفتى كانت حالته حقا تدعو للرثاء. فقد بدا هزيلا ضعيفا تحت ملابس السجن لقد توقع الشاب نفس المصير لأخته فأراد إنقاذها وساعده المأمور ليتقدم بشكوى لرئيس المحكمة. وقاضي التحقيقات يتهم فيها أمه بمحاولة قتل أبيه حقا بالغاز قبل وقوع الجريمة بعام كامل. الجد محرر من مكتب البريد «لاس فيجاس» للتحري واستجواب الكويتية وكعادتها كانت تختال في فستان أحمر اللون تجدة على أريكة على حافة حمام السباحة بفندق «هيلتون» وعندما أثار الغير أحقر جزء في الاتهام أخذت تصرخ: «هذا كذب.. كيف أحاول حتى زوجي.. فلم تكن عرفته مزودة بالغاز».

وأمام هذه الحجة الجديدة في محورت الأنظار في حالة ذهول وقد أصيب خيبة أمل. وعلى بعد ٩٠٠٠ كيلو متر اتصل بالمأمور ليلقه بمعلوماته الفاتنة. واعتقد المأمور – للحظة أن الفتى قد قام باختلاق هذه الرواية الجديدة. وطلب المأمور من زميل الأنتربول البقاء بالقرب من الكويتية حتى تظل تحت المراقبة.

وفي هذه الأثناء اتجه إلى السجن حيث الشاب قابع في زنزانته. بعد نصف ساعة اتصل المأمور من ميلانو بلاس فيجاس. وبعد أن رسم له الفتى بكل دقة حريطة تركيب الغاز في حجرة أبيه.

لقد كذبت الكويتية.. كانت حجرة زوجها مزودة بالغاز وحتى عام قبل مقتله.. وقام الكويت برفعه وبناء على طلبه بعد أن اكتشف حيلة زوجته أي بعد أن كاد يموت خنقا. وكان عامل الرصاص الذي قام بتركيبه وبرعه دليلا آخر على كذب الزوجة فقد قال الكويت في ذلك الوقت: «بهذه الطريقة لن يفكر نفس الكويتية للقتل مرة أخرى». وبناء على هذه المعلومات حجزت المرأة في زنزانة فاخرة «بلاس فيجاس» حتى تم نقلها لميلانو.

وأخيرا ألقى القبض على الكويتية «ديانا فانو» ثم صدر ضدها حكم يقضي بأقصى العقوبة لمحاولتها في قتل زوجها ولكن الأهم من هذا كله هو أنهم استطاعوا انتزاع القناة السكينة من مخالب الأم الساقطة في الوقت المناسب ■

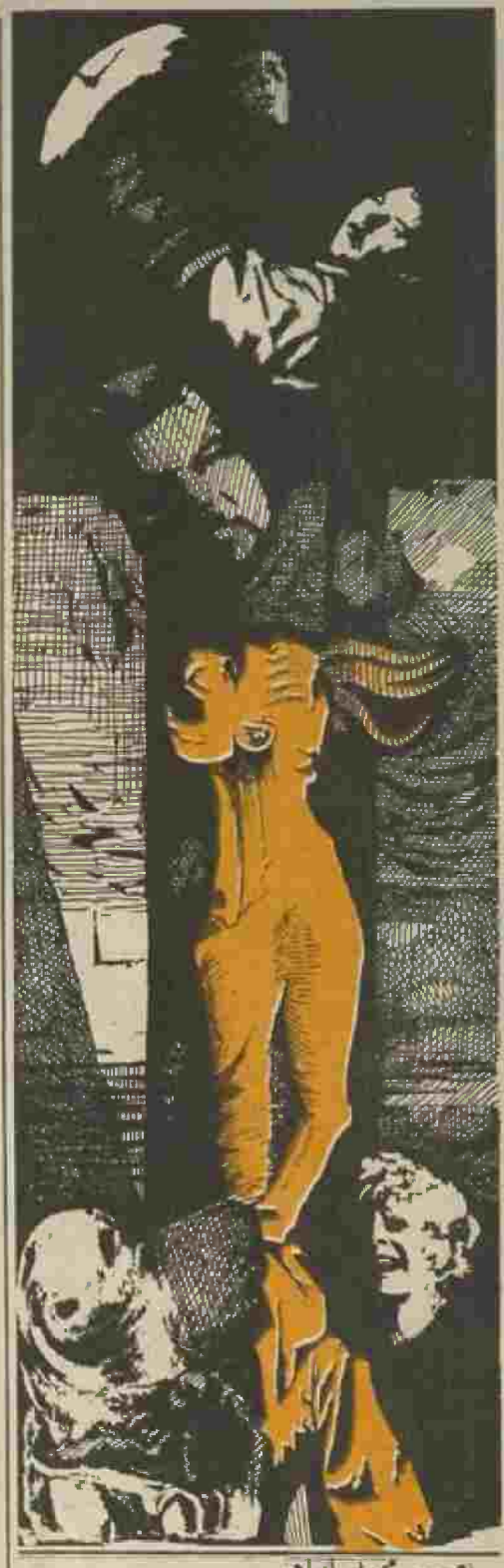

تصميم محمد ابراهيم